نابوليون الأول وحرب روسيا [1]

ان كل ما كان يحفُّ بنابوليون أوحى اليهِ المنهاج الذي جرى عليهِ في تمثيل دوره ، وجعله يلقي على عاتقهِ عبء مسئولية الحوادث الحاضرة والمستقبلة بدلاً من ان يتهيأ نفسهُ لتمثيل الدور المقضي عليهِ تمثيله

انهُ لم يكن يأتي عملاً من الأعمال او يقترف جريمة من الجرائم او يباشر سرًّا من الأسرار البسيطة ، الاَّ ويبادر الناس الى التنويه ببساته

ان الألمان لم يجدوا شيئاً يروقهُ أفضل من الاحتفال بتذكار معركتي ايانا وارستاد ولم يكن هو وحده عظيماً ، بل كان أجداده واخوتهُ وأولاد اخوتهِ وأصهاره جميعهم عظماء . وكان كلُّ شيءٍ يأول بسهولة الى ان يزيل منهُ آخر أثرٍ من آثار العقل ويعدُّه لتمثيل دوره الهائل . ولما تمَّ له الأمر كانت جميع القوى مستعدَّة لمناصرتهِ

وباشر غزو المشرق فانتهى الى الغاية الأخيرة وهي موسكو، فاستولى على تلك العاصمة وساق الى الجيوش الروسية متالف لم يكُ قد ساق مثلها الى الجيوش المعادية له من عهد موقعة اوسترليتز الى اليوم الذي جرت فيهِ موقعة واغرام

وعوضاً عن الصدفة والدهاء اللذين جعلاه ينتقل من انتصار الى انتصار جارياً الى الغاية المنصوبة لهُ ، نلقى فجأة مجموع صدفٍ معاكسة له من الزكام الذي أصابهُ في بورودينو الى الشرارة التي أضرمت النار في موسكو والبرد القارس في روسيا . و بدلاً من الدهاء نجد فيهِ ضعفاً وصغارة لم يذكر التاريخ شيئاً يماثلهما

وكانت الغزوة تتقدَّم ولكن بشكلٍ معاكس، وصارت جميع الصدف معادية له بعد ان كانت من أحلافهِ . وحينئذٍ شهدنا حركة مخالفةً موجهةً من الشرق الى الغرب تشابه كل المشابهة الحركة التي سبقتها

---

(١) راجع الزهور الجزء ٢ ص ٦٥

وقد أُعلنت حركة جديدة بمساعي عديدة جرت في السنوات ١٨٠٥ و ١٨٠٧ و ١٨٠٩ ، فتألفت عصابة كالعصابة الماضية وجعلت تكبر حتى صارت جماهير غفيرة وتألبت شعوب اوروبا الوسطى عند تلك الحركة التي كانت معتبرة تكراراً للحركة السابقة ، لأنهُ لم يكن ينقصها شيء لتماثلها مماثلة تامة من مثل التردُّد في اثناء الطريق وازدياد السرعة عند الاقتراب من الغاية . وأُدركت باريس ، وهي الغاية الاخيرة لتلك الحركة ، وكان من وراء ذلك انكسار نابوليون وجيوشه

وان نابوليون ذاتهُ لم يُعدّ شيئاً مذكوراً وصارت أعماله الاخيرة تستثير الشفقة عليهِ والنفور منهُ . ومع ذلك بدت صدفة جديدة تعجز الافهام عن ادراكها ، فان المتحالفين كانوا يبغضون نابوليون ويعتبرونهُ سبباً لجميع نكباتهم

وكان يُقضى عليهم في ذلك الحين ، عند زوال مهابتهِ وتقلص ظلّ قوّتهِ واتهام الناس له باقتراف الجرائم والغدر ، ان ينظروا اليهِ بنفس المقلة التي كانوا ينظرون اليهِ بها قبل ذلك العهد بعشر سنوات و بعده بسنة واحدة ، اي ان يروا فيهِ لصاً نبذتهُ الشريعة الاَّ ان صدفة غريبة لم تجعل الناس يعتبرونهُ ذلك الاعتبار . ولكنهُ لم يكن بعد قد اكمل تمثيل دوره . فان ذلك الرجل الذي كانوا يعتبرونهُ لصاً نبذتهُ الشريعة أُرسل الى جزيرة تبعد يومين عن فرنسا وأعطي تلك الجزيرة وعُيّن لخدمتهِ خفراء وخصص لنفقاتهِ ملايين من الفرنكات لأسباب لا يعلمها الاَّ الله

و بدأت حركة تلك الشعوب تسكن ، وهدأت الأمواج الزائرة وعقبها في ذلك البحر الساكن تموجات لطيفة ركب متنها سياسيون كانوا يتوهمون ان الفضل من ذلك السكون مرجعهُ اليهم

وعاد البحر الى الهيجان ، فاعتقد اولئك السياسيون ان الخلاف الذي نشأ بينهم كان أصلاً لذلك الهيجان ، وباتوا يتوقعون انتشاب حرب بين مواليهم و بانت لهم تلك الأحوال مأزقاً لا مخرج له . بيد ان الأمواج التي كانوا يشعرون بدنوّها منهم لم تأتِ من الجهة التي كانوا ينتظرونها ، بل كانت هي نفس الأمواج الآنفة الذكر آتيةً من باريس

وان ذلك الرجل الذي ألقى فرنسا في وهدة الخراب عاد اليها وحده دون ان تصحبهُ الجنود ، ودون ان يكون لديهِ خطة معروفة يسير عليها ؛ وكانت حياتهُ تحت رحمة كل خفير يلقاه في طريقهِ . ولكنهُ بصدفةٍ غريبة لم يُمس بأدنى أذى . وهرع القوم لملاقاته باحتفاء خلافاً لما كان منتظراً منهم ؛ وطبقت أصواتهم الفضاء بالتهليل لذلك الذي كانوا بالأمس يقذفونهُ باللعنات ، والذي سيعودون بعد شهر من الزمان الى لعنهِ . ولم يجرِ ذلك الاَّ لأنهم كانوا لا يزالون محتاجين الى ذلك الرجل لاتمام الفصل الاخير . انتهى الفصل وتمَّ الدور الاخير ، وأُمر الممثل ان يخلع لباسهُ وينزع عنهُ خضابهُ لاستغنائهم عنهُ

وهو نفسهُ أظهر للملا طرًّا بكل وضوح حقيقة ذلك الشيء الحقير الذي كان البشر يعتبرونهُ قوَّة حين كانت يد الحوادث غير المنظورة تقوده

وان مدبّر الكائنات الحقيقي عند انتهائهِ من تلك الرواية أمر أهم الممثلين فيها ان ينزع عنهُ ما كان متنكراً بهِ وأرانا اياه ، قائلاً : « انظروا ذلك الذي آمنتم بهِ . واعلموا الآن اني أنا الذي جعلتكم تسيرون على الطريق التي سلكتموها . وليس هو ! »

الاَّ ان البشر الذين تعمي بصائرهم قوَّة الانجذاب لبثوا مدَّة طويلة وهم لا يدركون الحقيقة

وانا نجد اموراً كثيرة مقدَّرة في حياة الاسكندر الأول وهو ذلك الشخص الذي ترأس الحركة المعاكسة ، اي تلك التي جرت من الشرق الى الغرب . فما هي الصفات التي كان مزداناً بها ذلك الرجل لتمكنهِ من تصيير ما سواه نسياً منسياً وترؤس تلك الحركة ؟

انهُ كان ولا مراء قد ازدانَ بعاطفة العدالة وعُني عناية حقيقية بشؤون اوروبا ولم يتعلق بأذيال امور لا طائل تحتها . وكان متحلياً بصفات ادبية تفوق صفات الملوك المعاصرين له وذا اخلاق لطيفة تستميل اليهِ القلوب وقد شعر باهانة شخصية نالتهُ من نابوليون

ان جميع هذه الاشياء المميزة كانت متجمعة عند الاسكندر الأول ، وقد حشدتها الصدف الكثيرة او الصدف المزعومة التي حدثت في حياتهِ الماضية ، وساعدها كل شيء كتربيتهِ واصلاحاته المبنية على أساس الحرية ؛ والمستشارين الذين كانوا يؤازرونهُ بصرف النظر عن اوستريتز وتلسيت وأرفورت

وكان هذا الرجل في اثناء الحرب الوطنية لائذاً بمقوة الخمول ، لانه كان مستغنى عنهُ . ولكنهُ لما أصبحت الحرب الأوروباوية مما لا يستغنى عنها ، برز في المواقف الخطيرة الى الموقف المعدّ له ، ليضمّ متفرّق الشعوب الاوروباوية ويسير بها الى الغاية المعروفة

ادركت تلك الغاية . وبعد الحرب الاخيرة التي انقدت نيرانها سنة ١٨١٥ كان لدى الاسكندر أعظم قوة يستطيع الانسان ان يصيبها .

وماذا فعل بتلك القوة الهائلة ؟

ان الاسكندر الاول معيد السلم الى اوروبا ، الذي هبت في صدره منذ حداثتهِ نسمات الرغبة الحقيقية في جرّ الهنا، والراحة الى رعيتهِ ، والذي كان أول من أدخل الاصلاحات الموسومة بسمة الحرية الى بلادهِ ، ذلك العاهل الذي كان قابضاً بيديهِ على عنان سلطة مطلقة كان يقدر بالحقيقة ان يعمل نلير رعيته ونجاحها . وماذا يبدو لنا الآن ؟ بينما كان نابوليون في منفاه يرسم خططاً كاذبة ووهمية ليظهر السبيل الذي يمكنه ان ينتهجهُ لسعادة الانسانية لو كانت له السلطة على ذلك ، كان الاسكندر الذي كانت له تلك السلطة ينهض باعباء مهمتهِ ، وهو شاعر بيد الله على قلبهِ ، ويعلم ان تلك السلطة هي من جملة الأباطيل ؛ ولذلك أعرَض عنها وتركها في أيدي أشخاص محتقرين ، ولم يكن يني عن ترديد هذه الكلمات : « ليس لنا المجد ولكن لك وحدك »

أنا انسان نظيركم ، فاتركوني أعيش عيشة رجل بسيط لأتمكن من التفكير بنفسي وبالله

كما ان الشمس او كل ذرة من ذرات الاثير تنشىء كرة مستقلة بذاتها ، مع

انها لا تؤلف الاَّ ذرة من ذلك الكائن العظيم الذي يعجز الانسان عن الوصول اليهِ ، فان لكل انسان غاية خاصة وفي الوقت عينه يخدم الغاية المشتركة التي يقصر العقل البشري عن الوصول اليها

ان النحلة التي تطير عن الزهرة تقع على ولد وتلسعهُ ، فيصير الولد يخاف النحل ويتوهم ان غاية النحل في هذا العالم لسع الناس

ان الشاعر يعجب بالنحلة التي تمتصُّ من كاس الزهرة ، ويصير يتوهم ان غاية النحل امتصاص شذا الازهار

ان المشتغل بتربيــة النحل يلاحظ النحلة وهي تجمع اللقاح وعصير النباتات لتغذية اليعسوب وصغار النحل ويصير يتوهم ان غاية النحل بقاء الجنس

ان النباتي يلاحظ ان النحلة تنقل اللقاح من احد النباتات الى عضو التأنيث في زهرة اخرى لتلقيحها ، فيصير يتوهم ان غاية النحل التلقيح

ان نباتياً آخر يلاحظ ان النحلة تساعد على نقل النباتات من مكان الى مكان آخر ، فيصير يتوهم ان غاية النحلة نقل تلك النباتات

ولكن الغاية الاخيرة للنحلة ليست في الغايات الاولى والثانية والثالثة التي مرَّ بيانها ، والتي يستطيع عقل الانسان ان يكتشفها

وكلما اكثر المرء من البحث عن حقيقة تلك الغــاية الاخيرة تجلى له ان عقله يرتدُّ كليلاً عن الوصول اليها

ولا يمكنهُ الاَّ ان يلاحظ العلاقة المشتركة بين حياة النحلة والحوادث الطبيعية الاخرى . فهو يبقى محصوراً في نفس الدائرة الضيقة للبحث عن غايات الحوادث والاشخاص الذين يذكرهم التاريخ فيظلُّ عاجزاً عن البلوغ الى الغاية الاخيرة

(عن تولستوي) الياس الحويّك

(١٩)

٣٠١٠